مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية ـ المجلد ١١ ( العددان ١و٢ ) ١٤٠٩-١٩٨٩م

# "الحلقة المفرغة" (١) بين الفن والواقع

د. علي نجيب إبراهيم
كلية الآداب
جامعة تشرين

**تحكي (٢) لنا الفتاة الفلسطينية يسرى رمضان ،بطلة "الحلقة المفرغة" قصة أسرتها التي كانت واحدة من كثير من الأسر الفلسطينية التي شردت من حيفا اثر هجوم العصابات الصهيونية على الأحياء العربية وتهجير ساكنيها بالعنف . وتستذكر يسرى كيف كانت مأساة أسرتها وهي تشهد مقتل أخيها الشاب حسين على أيدي الجنود الصهاينة ،فالأب يحاول الهروب فلا يفلح ليعتقل وينفى الى صحراء النقب ،وتصير الأم فريسة لدناءة الجنود المقتحمين،ومن بعد يهدم البيت لتتشرد الأم وابنتاها فداء ويسرى وولدها محمد.**

بعد حياة تعيسة في المخيمات ثم في الفندق عند الخالة القاسية كان الأب قد عاد ،وكانت يسرى قد صارت صبية حلوة، مما جعل أحد الأثرياء السعوديين"المتزوج من أربع نساء دوما" يعجب بها ويدفع مهرا غاليا لأهلها الذين قبلوه بدافع من العوز والفاقة . وهناك في السعودية تتلقى أشد أنواع الاضطهاد،فقط لأنها أبدت في الليلة الأولى تمنعا أمام زوجها، ومن خلال توسط أحد الأمراء تستطيع يسرى أن تفرض على زوجها الطلاق ، لتعود الى سورية وتحاول بداية حياة جديدة .لكنها تلاقي الصدمة اثر الصدمة ،فها هي تفصل من المدرسة لأنها مطلقة ،وتمنع من الخروج الى المجتمع لأنها بنت . غير أنها تبقى مصرة على المتابعة حاملة في ذاكرتها دائما ذكرى حيفا الحبيبة . تتعلم الانكليزية ،تعمل ضاربة على الآلة الكاتبة، تعشق أحد الشباب (رياض) الذى يفتح لها الأبواب العريضة على حياة الاستقراطية الدمشقية ،وهناك تنزلق لتشعر بالذنب القاتل ،فتهرب الى بيروت التي كانت قد عرفت فيها شهر العسل مع السعودي . وفي بيروت تشعر بحيرة وضياع ،فتقرر العودة الى أهلها، لتعترف لهم بكل شيء ،وتطلب السماح، وفي طريق العودة تتعطل السيارة ليكون لها في ذلك مناسبة سعيدة ،ففي فندق في " عالية " يعجب بها أمير كويتي فيصاحبها ثم يتزوجها " عرفيا "،ليكون الزواج الرسمي بعد تطليق واحدة من زوجاته الأربع . وفي غيابه تنزلق في مطب " خيانة " دبره صحفي الأمير،وهكذا تطلق ثانية لتعود خائبة الى دمشق .

وفي قبرص تتعرف على(هانس) الأمريكي الذى ينكشف فيما بعد أنه ضابط في المخابرات المركزية الأمريكية ،واتباعا لتوجيهاته تتعرف على المسؤولين في دمشق، ومنهم" سعيد" الذى هرب الى بلاد الأعداء بعد محاولة انقلابية . ثم تصير حياتها مكرسة للمسؤول" ماجد سمعان " اذ حاولت من خلال علاقتها به أن تكفر عن تعاونها مع الضابط الأمريكي. في هذه الأثناء كان

---

(١) الرواية الاولى لعبد الكريم ناصيف، دمشق ١٩٨٤ .

(٢) يرى بعض أساتذة السوربون أن هناك طريقتين لتلخيص قصة "رواية" : شرقية وغربية . فالاولى تورد التفاصيل كلها وان كانت لاتخدم الجوهر الذي يراد تقديمه ، والثانية تكتفي بالفحوى الموحية . ونحن نرى رغم أهمية تلخيص القصة ، أن الطريقتين كلتيهما لاتغنيان عن قراءة الرواية .

أخوها "محمد" قد كبر وتطوع في حركة "فتح"، واستشهد في احدى العمليات الفدائية، وقد كان دوما محط اكبار يسرى

أما العميد "عبدالوهاب" صديق ماجد، فتساوره الشكوك في أمر يسرى، فيأمر باعتقالها والتحقيق معها مما جعل ماجداً يهدد باستقالته اذا ما مُسّت حبيبة قلبه بأذى، لهذا يكتفي باجبارها على ترك سورية قبل الخامس من حزيران عام ١٩٦٧. وبعد حين وُجدت يسرى ميته في احدى المغارات، ولم يكن هناك من دليل على معرفة القاتل سوى تعليقة ذهبية فيها صورة ماجد سمعان الذي التقاها بعد سفرها عن طريق قبرص ورجوعها الى اللاذقية، حيث انتهت حياتها هناك .

قبل البدء بالتعليق على "الحلقة المفرغة" لابد من الاشارة الى مجموعة نقاط نراها هامة في اضاءة سياق حديثنا عن هذا العمل شكلا ومضمونا. هذه النقاط يمكن أن تلخص بما يأتي:

١ ـ لدى مواجهة عمل أدبي مصاغ على شكل سيرة ذاتية، كما هي الحال في الحلقة المفرغة، تواجهنا مشكلة معقدة على صعيد النقد الروائي، فكتابة ما يحدث لشخصية حقيقية تدعونا للتساؤل: متى يمكن اعتبار السيرة الذاتية عملا ابداعيا؟ واذا اعتبرناها ابداعا، فما المعايير التي سنحتكم اليها في اعتبارنا؟...

٢ ـ وتشمل الحلقة المفرغة بأحداثها مرحلة زمنية طويلة، تمتد منذ بداية نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ حتى الخامس من حزيران عام ١٩٦٧، مما سيخلق مصاعب شتى أمام الحكم على غنى هذه المرحلة تاريخيا من خلال شخصية واحدة تشكل محور الحلقة، فتشعّبُ الأحداث الذي يصل الى حد التفاصيل المجردة من الدلالة الفنية والتلخيص الجائر لكثير من القضايا الكبرى، اضافة الى محاولة استقصاء كل شاردة وواردة في مجال وصف الأمكنة كما سنرى، ذلك كله يفرض علينا سؤالا مركزيا: هل يطلب من الرواية أن تتكلم عن كل شيء كي تصل الى الهدف المطلوب وهو ايصال القارىء الى امتلاك الواقع المتحدث عنه جماليا ومن ثم معرفيا، أم أن هناك طرائق فنية أخرى؟...

٣ ـ وبما أن "الحلقة المفرغة" هي العمل الأول للكاتب، فانه ليس سهلا أن نسبر مدى امكانية الكاتب الابداعية، فكون العمل "باكورة" أولا، وطبيعته التي تعتبر محاولة لتسجيل أمين لحياة يسرى الفلسطينية ثانيا، يضعنا أمام مأزق نكون فيه دوما عرضة للأحكام غير الناضجة، وهذا ما سيجعلنا نلجأ الى العمل لجوءا لصيقا، وأيضا لن يبتعد بنا التأويل الى الدوران حوله دون الوصول الى جوهره .

من الصفحة الأولى يتبين أن بطلة الحلقة المفرغة تحكي قصة حياتها متوجهة الى "قارئها العزيز"، وهي تحاول أن تظهر على حقيقتها التي كانت قد أخفتها لزمن طويل . وللتدليل على واقعية القصة يوثق الكاتب عمله، وكأنه يريد أن يقول لنا: ها أنتم مع البطلة وجها لوجه، فلتعرفوا الحقيقة منها مباشرة:

الاسم: يسرى رمضان

مكان وتاريخ الولادة: حيفا ١٩٤٠

رقم الهوية: لاهوية

العنوان الحالي: لاعنوان

قارئي العزيز... هذه مذكراتي (١)

لكن، هل تنطبق معرفتنا للحقيقة من بطلة القصة على مايمكن أن نعرفه من الفن الروائي؟ وهل سنتمكن من تسمية قصة حياة يسرى رمضان "الحقيقية" والمكتوبة بخط يدها رواية؟...

يرى النقاد أن هناك أسلوبين لتجسيد

---

(١) الحلقة المفرغة ص ٥

الماضي فنيا : الذكريات SOUVENIRs و المذكرات Memoires. ويرى جاك بويّون J.POUILLON في كتابه "الزمن والرواية "٢" أن الأسلوبين يشكلان مفهوم السيرة الذاتية ( Autobiographie)، والفرق بينهما يكمن في أن الكاتب يسعى جاهدا، وهو يكتب ذكرياته، أن يتمثل الانسان الذي كانه فيما مضى، فهو يتكلم عما حدث وحسب ناقلا الى القارئ تقلبات الأحداث بموضوعيتها دون أن يتدخل أو يحلل. وعلى العكس من ذلك، فكاتب المذكرات يراجع ماضيه محاولا أن يحكم على نفسه، ولذلك فهو لايكتفي بنقل الحدث، انما يقومه مستفيدا من مكتسبات الحاضر ومعطياته التي لم تكن متوفرة في الماضي

أما عن العلاقة بين السيرة الذاتية وفن الرواية، فيرى Pouillon رأي فرناندز Fernandez الذي يعرّف الرواية بأنها سيرة ذاتية لشخصية متخيَّلة ومكوَّنة من عناصر حيّة مستقاة من موهبة الكاتب وخبرته معا (٣) .

بناء على ذلك، يمكننا أن نتبين بيسر أن ما كتبته يسرى رمضان يعتبر مذكرات، فهي تنقل لنا أحداث حياتها وقد حللتها بمنظار الحاضر . ومن هذه النقطة سننطلق الى القول: ان حيوية القصة التي تنبع من حركة التطور النفسي للبطلة مندثرة وفاقدة لطبيعيتها من خلال تدخل الكاتبة التقويمي . صحيح أن امتلاك الماضي لايمكن الا عن طريق الذاكرة، لكن الذاكرة المبدعة تستطيع أن تتخيل الواقع ـ الماضي معطية لكل عنصر من عناصره حقه . ولكي تتوضح فكرتنا، يمكن أن نورد مثال

---

(٢) "Letemps et le roman"Gallimard PARIS 1946 . 8em edition. P.P.P. 53.54.55 .

(٣)ـ المرجع نفسه . انظر الصفحتان ٦٦،٦٧

يسرى الطفلة البالغة من العمر ثمانية أعوام، والتي ترد على أمها وهي تقول، عندما كان الصهاينة يهاجمون بيتهم في حيفا :

ـ أرجو أن يكون الله معنا يا بنيتي ، ولا أظنه كذلك ..،

ـ "عجبا ،.. كيف لا يكون الله معنا ؟ "عدت من جديد الى التفكير" ونحن أصحاب حق لايرقى اليه الشك" ازداد عجبي وهمي، فاللغز أكثر صعوبة مما ظننت وأمي لاتريد أن تشرح لي ... خرجت من الغرفة ثانية" لابد لي من أن أسأل أبي، فهو رجل والرجال يعرفون كل شيء . الرجال أنصاف آلهة ..." (١) .

واضح أن الذي يتحدث ليس يسرى الطفلة، انما يسرى التي تكتب قصتها بعد مضي عشرين عاما، يسرى التي تقف أمام ذاتها لتحاكمها وتتخلص باعترافها بالحقيقة من شعورها بالذنب وتبكيت الضمير ـ على حد ما توحي به ـ ولعلها عندما وجدت حاضرها مفتقرا الى مبرر الاستمرار على ما كانت عليه دوما من حب للوصول واصطياد اللذائذ، عند ذاك راحت تضخم صورة ماضيها، مما انعكس على قصتها التي وضعت القارئ سلفا خارج الأحداث، وهي تحرمه من الشعور بجمالية الماضي التي لاتتأتى الا بالتصوير الموضوعي المتفق مع منطق الأشياء وتطورها. ولو حاولنا أن نظهر يسرى الطفلة على الشاشة، وهي تحلل مشكلة فلسطين، فلن نلبسها سوى ملابس مراسلة اذاعية، فيسرى اليوم ستجعلنا نبتعد كثيرا عن طفلة تصف الهجوم الذي شنه الصهاينة على دارها بأنه كان واحدا من " مئات الهجمات الأخرى التي قاموا بها على دور أهلنا العرب في المدينة كلها ... ففي ذلك اليوم والأيام التي تلته، قام الصهاينة بغزو

---

(١) الحلقة المفرغة ص ٨ .

تدريجي بطيء ومنظم للأحياء العربية، وكانت المعارك تقع في الشوارع على بعد مئة متر من وحدات الجيش البريطاني، فلا تحرك هذه ساكنا، وقد اشتد الاقتتال والاضطراب في المدينة، حتى بات الموقف فوضى تامة. ففي كل زاوية معركة وفي كل شارع قتال وعلى الارصفة الجثث ... الخ(1)

وفي ابتعاد القارىء عن عالم القصة وعدم اندماجه فيما يحدث نتيجة المفارقة الصارخة بين الواقع الحياتي والمستحيل الذى تحكيه البطلة، في هذا الابتعاد خطر على القيمة الفنية للعمل الأدبي. فاذا كان الفن يوصلنا الى معرفة الواقع عن طريق المتعة الجمالية، فان استيعاب الواقع جماليا يجعل من المستوعب جزءا من عالم القصة وهو يندمج في أحداثها. ومن ثم يدخل في الزمن الفني - زمن القصة - ناسيا الزمن الموضوعي الذي يعيش فيه، أي أنه يتمتع جماليا من خلال الشكل الفني الذى يكشف له واقعا جوهريا، يشعره بتماثل الحياة التي يعيشها الأشخاص المتخيلون والحياة التي يعيشها هو فيتعاطف ويندمج ويتمتع. وهذه الصلة بين القارىء والعمل الأدبي لايمكن أن تتحقق الا اذا كان العمل الفني الأدبي قادرا على الاقناع، ولعل هذا ما يعطي أهمية كبيرة من وجهة نظر علم الجمال لامكانية التصديق (La credibilite) في الابداع الفني. فاذا كان من المسلم به أن الرواية ليست جهاز تصوير ينسخ الواقع وحسب، فهي أيضا ليست التصوير لما لايمكن أن يكون واقعيا. وهكذا، فعندما نصف طفلة، ونعطيها سمات العجوز، فنحن لانعدم واحدا من المقومات الجمالية للرواية؛ انما نعدم جمهور الرواية التي لايمكن أن تكتمل من دونه، اذا اعتبرنا أن انجاز العمل الفني لايقتصر على الفنان وحده، انما يتعداه الى طرف هام، وهو القارىء أو المتلقي، أي الجمهور.

ومن الشواهد الكثيرة على هذا الجانب من فرض الحاضر بكل ما فيه على الماضي، سنثبت شاهدا أخيرا يؤكد ما نرمي اليه من جهة، ويمكّننا من الانطلاق الى استنتاج آخر ومهم من جهة أخرى. فعلى الطريق من حيفا الى لبنان يقتل الأستاذ "سلمان" على أيدى الصهاينة. والأستاذ سلمان كان معلم يسرى المثالي الذي لاتزال وصاياه وكلماته ترن في أذنيها... تقول:

" لقد مات على أيدي الاسرائيليين أنفسهم، أولئك الذين طلب منّا أكثر من مرة أن نرأف بحالهم، وأن نشفق على أطفالهم، أن نعاملهم بلا تفرقة أو تمييز، كان يقول لنا: انهم شعب اضطهد كثيرا وشرد طويلا. لم يكن يعلم يومها أن ذلك الشعب المضطهد سينزل بنا أبشع أنواع الاضطهاد، لم يكن يدري أن ذلك الشعب المشرد سوف يسقط علينا كل فنون التشرد التي تذوّقها عبر التاريخ" (1).

فلو سلمنا بأن هذا المعلم (الواعي) يطرح قضية التعايش العلماني بين العرب واليهود على هذا المستوى في الصف الثاني الابتدائي فانه لايمكن أن يكون وعي الطفلة يسرى لذلك سوى مقدمة منطقية لمفكرة أو فيلسوفة، فوعيها الواضح - ومنذ البداية لقضية شعبها المشرد - لن ينتج ذلك الانحراف الذي يقودها الى أن تكون عميلة أميركية، سيما أنها حافظت على متانة ارادتها في تفهم ما يجري في المنطقة العربية من نزاع، ففي السعودية - وعلى الرغم من أن زوجها كان يسجنها - راحت تحاول أن ترقب الساحة العربية عن كثب وتتتبع أنباء الصحف

---

(1) الحلقة المفرغة ص ١٣.

(1) الحلقة المفرغة ص ١٧.

والاذاعات وكلها شوق لمعرفة الأمور وتطور الأحداث. (١) كما أن ذكر مدينتها حيفا لم يكن يغيب عن بالها، بمناسبة وبغير مناسبة. فكرها لزوجها السعودي (مثلما هو كره حيفا لوحشها الرابض فوق صدرها) (٢)، وفي أكثر من ليلة فكرت بقتله وقتل نفسها (وحيفا ألم تفكر بذلك ياترى؟) (٣). وما أكثر ما تقارن بين حالها وحال بلادها! (٤) هذه المقارنة وهذا الحضور الدائم لحيفا - وإن كان فيه تكلف واضح - يدفعنا لنتنبأ ليسرى، لالتكون موجهة سياسية وحسب، بل لتكون مناضلة متمرسة، تصقلها الأحداث وتنمي معرفتَها قدرتَها على التحليل والاكتساب، فكيف صارت عميلة أميركية؟...

ترى يسرى أنها أصيبت بهزات عديدة كانت كفيلة بجعلها تنحرف عن الجادّة، من هذه الهزات:

١- باعها أهلها الى الثري السعودي وهي لم تكن راضية به.

٢- طردوها من المدرسة فقط لأنها مطلقة.

٣- معاملة أهلها القاسية التي جعلتها تفكر بالانتحار، لكنها عدلت عنه.

٤- غدر حبيبها (رياض) الذي أسلمها الى صديقه البرجوازي المتزوج (ميشيل). فبعد (افتراسه) لها خافت من العودة الى البيت، وذهبت الى بيروت، وتزوجها الأمير الكويتي، ثم طلقها لأنها خانته في أثناء غيابه ... الخ ...

ان هذه الأزمات مجتمعة ينبغي ألا تؤثر - منطقيا - في ذهنية فتاة تعي واقعها، أليست هي مشردة بعيدة عن أرضها، ويمكن أن تكون عرضة لكل أنواع التجارب والمآزق والمحن؟ سنلجأ مرة أخرى الى الافتراض لنسلم بمنطقية تعليلها لانحرافها، ليتبين لنا أن الانحراف كان عن وعي أولا، وأن حضور مشكلة شعبها وذكرى مدينتها حيفا ليس الا ادعاء. ولو حاولنا أن نبحث عن المسوغات الفنية التي توضح كيف تطورت الأحداث لتجرّ يسرى الى ما آلت اليه، لما استطعنا أن نجد منها شيئا. ربما سيرد علينا بأن القصة حقيقية، وقد حصل ذلك فعلا. لكن سنتذكر أننا نبحث في العلاقة بين فن الرواية والسيرة الذاتية باعتبارها واقعا، ففي الفن عامة لاتؤخذ الحال الفردية معيارا ابداعيا، إلا عندما يمكن لهذه الحال أن تجسد حالا جماعية. ومن هنا نقول: قد يكون ما تقوله يسرى صحيحا، ولكنه صحيح قياسا اليها باعتبارها يسرى رمضان، وهي قطعا لاتمثل الفتيات الفلسطينيات اللواتي شُرِّدْن مثلها، وعشن لاجئات وفي كنف أهل متعصبين. ولما جعلتنا قصتها نتتبع الحدث دون أن نحسه ودون أن نقتنع بمنطقية وقوعه، فرضت أن نراقب العمل من خارجه دون أدنى مشاركة أو انفعال.

قديتبادر الى الذهن أن الرواية، بحكم طبيعتها التي تستوعب الحدث زمنيا دون أن تكتفي باللمحة كما في القصة القصيرة مثلا، يمكن أن تتمثل الواقع بكل تشعبه وتفاصيله، غير أن ميزة هذا الجنس الأدبي تقوم على التعبير عن الواقع من خلال وصفه الفني- الابداعي، وليس على وصف الواقع لبيان تفاصيله كلها من دون الالتفات الى مسألة "الاختيار" لما يمكن أن يعكسه مما هو جوهري فيه. وهكذا فان نوعين من العلاقات يطرح نفسه للبحث:

١- العلاقة بين المؤلف الفني والواقع.

٢- العلاقة بين الواقع الفني المعكوس في

---

(١) انظر الصفحة ٣٧ من الرواية.

(٢) الحلقة المفرغة ص ٤٣٠.

(٣) الحلقة المفرغة ص ٤٣٠.

(٤) انظر ص ١٧٢ من الرواية.

المؤلف وبنية المؤلف نفسه .

فعن العلاقة الاولى سنكتفي بالاشارة الى أنها ليست علاقة رصد حيادي للواقع على الطريقة التي زعمها زولا (١) في تشريعه للمدرسة الطبيعية . انما هي علاقة اختيار لما هو قادر على عكس الواقع والتعبير عنه في آن واحد .

أما عن العلاقة الثانية فسنركز في بحثها على العلاقة بين الجزء والكل في بنية العمل الفني. فاذا كانت بنية العمل الفني هي "العلاقة الجوهرية بين أجزائها" على حد تعبير ريد يكر، فهذا يعني أن لكل جزء مهمة محددة داخل البنية العامة للعمل . وعندما نجد تفاصيل لاوظيفة لها في تنظيم "الكل" في العمل الفني كالرواية مثلا، تختل المعادلة وتختل معها جمالية الانعكاس الفني للواقع المراد تجسيده. ويرى القارئ نفسه خارج ما يحدث، وبذلك لايمكن أن يشعر بالمعاناة الجمالية التي يفترض أن تخضعه لها عملية مشاركته في عالم الرواية .

وفي الحلقة المفرغة نلاحظ أن البنية الفنية ليست كلا متكاملا ناتجا عن تفاعل وظائف الأجزاء فيما بينها، بل هي مجموع لمحصلة الأحداث وما يتعلق بها من وصف وحوار زائدين . هذا المجموع الذي يحطم تكامل البنية الكلية للعمل يظهر على عدة أشكال نذكر منها مثلا:

أولا: الوصف المبالغ فيه :

من المعروف أن الشعر هو ميدان التشبيهات والاستعارات وما شابهها، أما الرواية فليس من طبيعتها أن تتحمل (البلاغة) لأنها تعيق فيها وقع الحركة الزمنية الداخلية الناتجة عن تناغم وظائف الأجزاء. لنأخذ مجموعة من الأوصاف الواردة في الرواية ولنقم عليها الدليل :

الاب الذي لم يكن ينطق عن شوقه ولهفه، ولكن "كل ما كان فيه ينطق بهما صارخا كما ينطق الفجر، في صياح ديكته، بالشوق واللهفة للنهار" - الحلقة ص ٢٤ -

- ويتكلم الأب عن سجنه في صحراء النقب: "لم تكن ألواح التوتياء تمنع الحر بل تزيده لكأنها عدسات المحارق، ولم تكن في البرد الا مكثفا يزيد من شدته وضراوته" - الحلقة ص ٢٧ -

- وعن والدها ليلة هجوم الصهاينة على بيتهم في حيفا تقول: "يدخل باب دارنا دافعا اياي في طريقه كما يفعل تيار بحصاة صغيرة" - انظر ص ٢٣ -

- الأم تستقبل الفجر "بدموع غزيرة كوابل المطر، وكأنما عاهدت السهر على أن ترافقه... ... وكل دمعة لأية امرأة في العالم تستمطرها شآبيب دموع." ص ٢٢-

ومن العبث ملاحقة هذه التشابيه التصويرية، فهي أكثر من أن تحصى، لكننا قدمنا منها ما يمكن أن يعطي فكرة عن اعاقة الوصف المبالغ فيه لحركة الزمن الداخلية التي ذكرناها قبل أسطر .

ثانيا: كثرة الزوائد التي لاوظيفة لها:

سنضرب مثالا شديد الوضوح على ذلك، وهو الفصل ٢٧ في الرواية، الواقع بين الصفحتين ٢٣١- ٢٤١. وهو يلخص رحلة يسرى مع ماجد سمعان الى مؤتمر جنيف، ومن ثم الى بقية دول أوروبا، حيث قضيا أروع الايام.

---

(١) يرى زولا أن على الفنان أن يتعامل مع ظواهر الواقع التي يجسدها في عمله الفني كما يتعامل العالم مع الظواهر التي يدرسها فكما أنه ليس معقولا أن يتعصب عالم الكيمياء للاوكسجين لأنه يفيد الانسان وضد الكربون لأنه يضرّبه كذلك فالاديب يجب ألا يفضل ظاهرة من ظواهر الواقع على غيرها ( انظر ص ٤٠٤ من كتاب: "Les textes litteraires generaux"

A Chassang et CH. Senninger
Hachette . PARIS 1958 ).

(٢) الانعكاس والفعل، هورست ريديكر. تعريب د. فؤاد مرعي. ص ١٨ .

ولن نغالي اطلاقا اذا قلنا: ان حذف هذا الفصل لن يؤثر في سيرورة القصة، كما أنه لن يقلل من حب يسرى لماجد. هذا بشكل عام، ولو قرأنا الفصل لرأينا أنه خليط تقارير ثقافية (ماجد يتحدث عن آلهة الأولومب - ص ٣٢ - وعن الباستيل واللوفر في باريس - ص ٢٣٣ - وعن حضارة الأندلس - ص ٢٣٧ - ،وسياحية( وصف لجمال جنيف وروما وباريس و الأندلس وغيرها...) .

اضافة الى قصيدة الشعر التي كتبها ماجد والمثبتة بأكملها - الصفحات ٢٣٥- ٢٣٦- ٢٣٧- ولن نذكر الأحاديث الهاتفية التي تستغرق صفحة أو أكثر، لتقول لنا ان ماجد لايستطيع المجيء الى يسرى لأنه مشغول (انظر ص ٢٤١) ،ولا الفصل التاسع عشر - ص ١٦١- ١٦٤- المتضمن حديث يسرى عن الطائرة والغيوم وأسباب المنخفضات الجوية.

ومما يزيد في حدة السلبية في هذا الجانب هو حديث يسرى عما يجري على الساحة السياسية ،فهي تتحدث كما لو أنها تلخص عناوين الصحف أو تعليقاتها. تقول في كلامها عن الوحدة بين سورية ومصر :

"كل شيء في صعود... المد القومي طامة.. التفاؤل في كل مكان... دمشق والقاهرة تعيشان عرس العرب الحديث ... عرس الوحدة الثنائية التي لايغلبها غلاب ...

حيث تسجل قيادة البلدين مأثرة تاريخية؛ اليمن ستنضم الى الوحدة... وكذلك العراق. ولبنان والاردن وربما ... العالم العربي كله ... ص ٦٣ .

وعن انجازات عبد الناصر: "كان عبدالناصر قد أصدر قوانين جذرية ... اصلاح زراعي يقضي به على الاقطاع، وتأميم يقضي به على رأس المال ... لااستغلال بعد اليوم ... لااحتكار ولااستثمار بل اشتراكية ومساواة... عدالة وتكافوء فرص ... هذاما كان يهتف به زوج أختي عندما دخلت ." .

( ص ٨١). وانظر ص ١٢٣- ١٢٤ (حديث عن انهيار الوحدة) ،ص ١٤٩ ( عن الفدائيين والقصف الاسرائيلي. وص ١٧٥ ( قصة نوال التي سافرت الى افريقيا هروبا من اخفاق علاقتها بياسر) ،ص . ص ١٧٦- ١٨١ (رحلة التسلية في بلودان مع صادق) ،مما يمكن أن نسميه استطرادات وزوائد لاشأن لها ولا فائدة .

ثالثا: الاعتماد على الصدفة :

عندما تتحكم الصدفة بمجرى الأحداث في العمل الفني تفقد مشيئة الفنان واختياره تأثيرهما الفعال .

فأهمية التجسيد الفني - كما قلنا سابقا- تكمن في كونه يعتمد على شريحة من الحياة الاجتماعية يمكن أن تكون نموذجا، أي أن الشريحة المنمذجة ذات طبيعة انتقائية ELECTIVE. ومن هنافالقوانين التي تتحكم بالأحداث في العمل الفني لن تكون قائمة على الصدفة أو عارضة ( اذ تعتبر الصدفة خروجا على قانونيات الأشياء الموضوعية) ، انما هي قوانين معللة ،وما تفاعل الأجزاء داخل بنية العمل الفني سوى التعبير عن ذلك،والا لما كان من الممكن للفنان أن يتوصل الى جوهر الواقع ويعكسه من خلال ابداعه. والان لو رجعنا الى" الحلقة المفرغة" لرأينا أن هناك مصادفات تتحكم بالأحداث وتغير مجراها بشكل لايتفق لامع سيرورة الحياة ولامع منطقها. يشهد على ذلك_مثلا_أن يسرى هربت الى بيروت بعد أن ضاجعها ميشيل مستغلا سكرها،ولما لم تجد ضالتها قررت العودة الى دمشق(ص ٩٩) . وهكذا اتجهت صوب دمشق وهي تقول في نفسها :" ليذبحني والدي،وليميتني أهلي عقابا وحرمانا ،فذاك خيرألف مرة من أن ألقي بنفسي في يم لاأعرف السباحة

فيه " (ص ١٠٠) .

ولكن السيارة تتعطل عند "عالية" مما وضع يسرى في مأزق لأنها وجدت نفسها في فندق،عليها أن تدفع فيه الحساب،وهي لاتملك مليما. لكن جمالها أنقذها- كما أنقذ أهلها من الفقر عندما زوجوها من السعودي- اذ أعجب بها أمير كويتي وأحبها،وأخيرا صارت أميرة في قصره ... الخ... فأين أصبح القرار الحازم الذي اتخذته يسرى،فقبل قليل كان الذبح أفضل من أن تلقي بنفسها في يم لاتعرف السباحة فيه ؟... هذا من جانب ،ومن جانب آخر ماذا كان سيحصل لو أن السيارة لم تتعطل، ولم يتعرف عليها الشيخ الكويتي عبد الرحيم النبهان؟ ...

لن نستطيع التخمين وسنخضع لتعسفية الصدفة لنبقى خارج الأحداث. لكن الصدف كانت ذات أهمية بالغة في حياة يسرى، لأنها كانت تنتشلها من المآزق،وان كان ذلك الى حين كما تصرح بعد تعرفها على أبي سمير صاحب مقهى التيفولي(ص ١٨٥) ، وعلى أم العز التي فتحت لها آلاف الآفاق على الحياة الاجتماعية للطبقة العليا - وللمسؤولين خاصة - في دمشق(ص ١٨٦ وما بعدها) .

وهذه الانحرافات التي تخلقها الصدفة تجعل القصة تتجزأ الى مجموعة من القصص التي لارابط بينها سوى يسرى . فكلما حاول القارىء أن يعتمد على قرائن الواقع التي تشارك في تطور شخصية البطلة فوجىء بالصدفة التي تهبط بالحدث الى نقطة الصفر،وهكذا ... .

رابعا : الغموض:

ويترافق مع الصدفة الغموض الذي يحيط ببعض النقاط الهامة في القصة، فيسرى تصرح بأنها تعرفت على الضابط الأمريكي (هانس) في الصفحة (١٢٨) دون أن تكون في الصفحات التي سبقت أية اشارة الى أنها ذهبت الى قبرص . وكذلك في أمر تآمرها مع سعيد الحازم دون أن نعرف عن هويته شيئا (ص ١٣٩) ...

والوجه الثاني للغموض يتلخص في تهاون العميد عبد الوهاب في قضية التحقيق مع شكه الفاصل بيسرى . فاذا كان كل ما في القصة يؤكد بأنها حصلت فعلا،فان ذلك ليضع اشارة استفهام على ضمير ذلك المسؤول الوقور! لن نضيف أكثر من أنه عفا عن القضية الوطنية برمتها كرمى لعيني صديقه السيد ماجد سمعان !!...

مما تقدم نستنتج نقطتين:

١- أن يسرى لم تكن تعيش في حلقة مفرغة ،فما كانت تريده كان يتحقق. ولو كانت تريد أن تحسم مواقفها إذاً لسارت على درب أخيها،وصارت مقاتلة ( فهناك مقاتلات فلسطينيات كثيرات) ،وقطعا لن يكون القتال دورانا في حلقة مفرغة،واذا كان هدفه واضحا وعادلا خاصة،كما هي حال حركة المقاومة الفلسطينية .

٢- أن الأسلوب الفني للقصة ،الذي جاء مفككا وغير متناغم كما رأينا، يجعلنا نحكم على الحلقة المفرغة بأنها سيرة ذاتية أكثر منها "رواية" سنعود ونؤكد أن هناك اعتباريين ينبغي الانفضلهما في ختام هذه الملاحظات حول الحلقة المفرغة والواقع :

١- الأول يتعلق بكون هذا العمل هو أول عمل ابداعي يقوم الكاتب بانجازه مما لايجعل من الحكم عليه سندا تدعمه الأحكام والمقارنات من أعمال أخرى للكاتب نفسه . ففي تلك الحال تستطيع المقارنة أن تحدد مسار تطور الابداع، أهو ثابت أم متقدم والى أي مدى يصل...الخ... وحبذا لو نقرأ للكاتب

أعمالا أخرى أكثر نجاحا...

٢- طبيعة القصة التي ترويها البطلة كما حصلت تماما (وان كانت تقومها، فهذا لن يغير شيئا من كونها حصلت).

والكاتب الذي حصل على القصة عام ١٩٦٧، كما نخمن، وانتهى من صياغة عناصرها وترتيبها لتخرج على هذا الشكل عام ١٩٧٢ ونشرها عام ١٩٨٤ كان أمام مشقتين:

الأولى: حرصه على أن يكون وفيا لحقيقة القصة، مما جعله يورد التفاصيل كما كتبتها صاحبتها.

والثانية: محاولته في أن يعطيها قالبا فنيا يتلاءم وشكل الرواية. والأمران كلاهما يوقع في مصاعب ومصاعب شتى.

**Resumé du roman : " Le cercle vicieux"**
**de Abdul . Karim Nasif . publie à Damas**
**en 1984**

YOUSRA RAMADAN , la fille Palestinienneet L'héroïne de ce roman , nous raconte l'histoire de sa famille exclue de Jafa par les soldats sionistes qui ont tué sauvagement son frère Hussein .Alors , le père S'échappant et étant entré en prison , la mère , avec ses deux filles dont youssra , et son fils Mouhammad , seront tous perdus et désesperes .

Dans ce propos , on va essayer de révéler le ou les rapports qui pourront exister entre les souvenirs narrés par yousra , et l'art romanes que d'un Côté et entre tout cela et la réalite d'un autre côté .